

ويُقال أعمى

الديوان الأندلسي وقصائد إيلينا

خلف علي الخلف

ويُقال اعمى

الديوان الأندلسي وقصائد إيلينا

شِعر

الكتاب: ويُقال أعمى

الديوان الأندلسي و قصائد إيلينا

المؤلف: خلف علي الخلف

شِعر

الناشر:

جدار للثقافة والنشر | مالمو - الإسكندرية

www.jidar.net | info@jidar.net

الطبعة الأولى

الترقيم الدولي: 978-1-326-90392-3

تصميم الغلاف: جدار للحلول المستدامة

CALLED BLINED

By: Khalaf Ali Alkhalaf

Poetry

Publisher: Jidar for Culture & Publishing

Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: 978-1-326-90392-3

كُتبتْ نصــوص هذه الديوان بين عـامي 2019 - 2023 في جزر الكنـاري ومـدن الأنـدلس؛ مـالقـا، قرطبـة، غرنـاطـة، ألمريّه؛ إضافة إلى الإسكندرية والرياض ومسقط.

المحتوى

شمسٌ أندلسية تغنّي للغجر

أغنيةٌ غجرية في ساعة متأخرة من الليل

في مالقا؛ أسـكن في حيٍ للغجر؛ نتبادل التحايا ونسـأل عن «الحال» باعتيادية شديدة. في الشتاء يجلسون في الشمس أمام البيوت يجففون أحلام الامس وفي الصيف يجلسون في ظلال بيوتهم يتذكرون البلاد التي نسيتهم.

يتحدثون بأصوات عالية لتسمعهم الأشجار وينشرون غسيلهم على الحبال. يدخنون التبغ بشراهة كأن لهم ثأراً قديماً مع الدنيا ويلعب أطفالهم في الشوارع والساحات لساعات متأخرة دون خشية من الليل..

يمكن لي أن أصـــف حياة الغجر؛ على الأقل كما تبدو من الخارج؛ وأقول: إنهم يشــبهوننا؛ كأنهم قادمون من الشـــرق قبل قليل! حتى أني أشـــعر أنهم فلاحون من ميزوبوتاميا قذف بهم البحر أو البرُ هنا قبل نهاية الرحلة! لكن هناك شـــئاً ما مختلف؛ ألاحظه دائما؛ لا أعرفه تماما ولا أراه بوضـــوح؛ إذ إننا نبدو [أنا على الأقل] كأخطاء تائهة تمشـــي على مهلٍ بينما يبدون كأغنيات أو طيور.

2 \ 10 \ 2020

- يطلق على الغجر في الأندلس الخيتانوس Los gitanos أو رومانيس Romaníes أو كالي Calé كما يطلق عليهم جبسي Gypsy ذلك أنه في القرن الخامس عشر اعُتقد أو زعموا أنهم جاؤوا من مصر. يتكونون من خمسة جماعات رئيسـية تعتبرهم الثقافة الإسـبانية شـعب أو مجموعة عرقية تعود أصـولها إلى شـبه القارة الهندية، و لديهم تراث لغوي ثقافي مشـترك من أصل هندي آري ويقدر عددهم بمليون نسـمة في إسـبانيا. هناك يوم عالمي للغجر يحتفل به في 8 أبريل | نيسان كل عام.

شمعةٌ تبكي وتوقد الليل

أغاني الغجر حزينة. عندما يغني الغجري تشعر أن صوته يقطر دماً من طعنة غادرة. يغني كأنه يهيل التراب على نفسه؛

الكلمات عشب يابس من الشمس
واللحن جرح عميق في أسفل العنق لم يندمل

الغجر يطوون الأرض ويضعونها في حقائب أصواتهم. يمزقون السماء كما تمزق قطعة قماش بالية لتمسح بها غبار الحياة.

هؤلاء الغجر الذين في الأندلس، ويغنون أغنيات حزينة لا أفهم كلماتها، يبدو أنهم يعرفون ماذا تعني الروح، المفردة التي رفض الله تفسيرها؛

فعندما يغني الغجري؛ كأنه بخنجره المصقول واللامع بالألم، يزيل الدم اليابس عن جرح خلفته الأيام في الروح.

8 \ 10 \ 2020

عالمٌ يغني تهويداتٍ خضراء

في آخر الليل، حين يعزف جيراني الغجر موسيقاهم؛ أو حين يغني؛ على نافذة مفتوحة جار ثمل غناءً حزيناً؛ يشبه المواويل الفراتية، يغيب من حولي المكان

أعود طفلاً
يركض في برارٍ خضراء شاسعة ملونة بالورد
يعود العالم إلى طبيعته
واسعاً لا يُدرك
دون حدودٍ بين البشر.

01 \ 11 \ 2020

أغنيةٌ ضائعة

في حانةٍ صغيرةٍ في قَصَبة مالقا، أجلسُ وحيداً أتأمل الزمن في نظرات رواد الحانة، بينما يشربون كؤوس البيرة بشغفِ من وجدَ بئر ماءٍ في التيه.

عادة تختلط الأماكن والوجوه والدنيا فأضيع في زمن قديم أو في دروب فقدتْ ملامحها.

فجأة أصحو على أغنية غجرية تنبعث من قادمٍ ثمل إلى الحانة فأفتش في جيبي لأني أشعر أن هذه الأغنية سقطت مني والتقطها هذا الرجل الثمل.

10 \ 11 \ 2020

- **القصبة**: الحي القديم في مدينة مالقا، وهي أحد المدن الرئيسية للأندلس على البحر الأبيض المتوسط. بالإسبانية Málaga اسم المدينة و Alcazaba اسم الحي.

أولئك الذين يرقصون الفلامينكو

في الأندلس أحببت المولى سين. أول إله يرقص في السماء على تراتيل عباده الحزانى في المعابد. وجدته هنا يرقص مبتهجاً مع الناس لا يهم بأي لغة يرقص أو يغني أو حدود معجزاته.

في أندلس القرن الحادي والعشرين أدركتُ أن سلالة الحزن يمكن أن تكون من السكان الأصليين للبلاد وأن سلالة راقصي الفلامينكو يمكن أن تكون نهراً من الدموع!

هنا يمكن لك، دون أن تكون إلهاً، أن تنثر أغنية يتيمة تلبس ثياباً حزينة وممزقة ليرقص عليها الأندلسيون بفرحٍ دون أن يعرفوا كلماتها!

01 \ 01 \ 2021

- قدم الأندلسي بلاس إنفانتي (1885- 1936) الذي يعتبر الأب المؤسس للقومية والهوية الأندلسية، التي يربطها بالفترة العربية الإسلامية في الأندلس، تفسيرا لأصل كلمة وغناء الفلامنكو [بالإسبانية: **Flamenco**] بإعادتها للجذر العربي (فلاح منكوب)، ورأى أن أصل هذا الغناء يعود إلى الأندلسيين الذين بقوا في الأندلس بعد قرار الترحيل، يترحلون هاربين ويغنون أحزانهم وهم يرقصون.

أشبيلية بعيون صوفيْ

حينما قررتْ صوفي أن تزور أشبيلية التي يسميها الإسبان سيفيّا، كنتُ مكتئباً، كنت أعدُّ النجوم من نافذة غرفتي لأغفو، أراجع تاريخ أجدادي السومريين وأتلو على مقام النسيان أغنية بصوت إنهيدوانا لأتعلم نسيان الإعراب والحزن، كنت ميتاً لا يريد الإعتراف بذلك. ذهبت صوفي لوحدها إلى إشبيلية.

كنت أمشي قريبا من دوار Los Hermanos حينما شعرتُ أن كائناً خفيّاً، كقصيدة هاربة من كتاب التساؤلات لنيرودا، تعلق برقبتي وصار محمولاً على ظهري. خطر في بالي أن ذلك من أعمال الجن والهلوسات، فأينما استدرت يبقى التساؤل معلقاً برقبتي ومحمولا على ظهري. لمست يديّ التساؤل، فعرفت أنها صوفي.

بعد أن نزل السؤال عن ظهري، قلت لها بشغف لا تعكسه الإنكليزية: كيف رأيت أشبيلية؟

قالت إنها مدينة عظيمة، لكنها لم تشعر أنها Home كـ مالقا. أضافت بعد نظرة مخاتلة: ربما لأنك في مالقا ولستَ في أشبيلية.

في ذلك الحي الغجري حيث يعيش السكان وفق قوانين قلَّمتها الحضارة الغربية، حضنّا بعضنا كعاشِقَين من زمن اندثر.

04 \ 04 \ 2021

- **إنهيدوانا** (2285-2250 ق م): وتلفظ إنخيدوانا أيضا، تعتبر أقدم شاعرة ومؤلفة معروفة في تاريخ العالم، حيث تظهرها عددٌ من الأعمال في الأدب السومري، مثل تمجيد إنانا، باعتبارها الراوية بضمير المتكلم، وأعمال أخرى، مثل ترانيم المعبد السومري نسبت لها كمؤلف. وهي إلى ذلك ابنة سرجون الأكدي مؤسس الدولة الأكدية. معنى اسمها الكاهنة الأعلى للإله سين، الإله القمر.
- **Los Hermanos**: بالعربية الأخوين.
- **Home**: تعني بالإنكليزية الوطن أو البيت بصفته مؤلا للشخص وتختلف عن مفردة منزل House الدالة على المسكن.

شمسٌ تائهةٌ تُدلِكَ الطريق

صباحاتٌ من أصلٍ واحد

الصباح في الأندلس يشبه الصباح في بلادنا. أقصد بالتحديد؛ الشمس الواضحة، التي تخلق لك ظلاً من العدم

ليرافقك كصديق.

01 \ 05 \ 2021

بلادٌ جارحة

الأندلس بلاد جميلة. أغنية مبهجة يعلقها الزمن على جيده بينما يرقص مع الغجر التائهين. بلادٌ تجد فيها الأغاني المهاجرة وطناً بديلاً، تشرق فيه الشمس بشكل معتاد دون قناع أو ملابس تنكرية. هنا لا تصادف العنصرية، التي تتكاثر في الطقس البارد والبلاد التي نَسيتْ فيها الشمس عيد ميلادها وملامحها..

الأندلس بلاد جارحة
لأنها توقظ الذكريات التي ضيّعت الجهات.

18 \ 11 \ 2021

توسلاتٌ لشوقٍ لم يتعلم الرحمة

أجلسُ على شاطئٍ أندلسي؛
على صخور تشبه تلك التي جلستُ عليها طويلاً في الإسكندرية، على الضفة الاخرى من المتوسط، تنتابني المشاعر ذاتها؛ رغم اختلاف لغة المارة وأقنعتهم.

المشاعر تتحدث معي باللغة نفسها؛ لغة لا تجيد غيرها؛ أفهمها ولا أستطيع نطقها.

هنا على شاطئٍ أندلسي أجلس؛
متوسلاً لشوق غامض لا يؤدي إلى جهة أو بلاد أو شخوص أن يتركني بحالي ويغادر.

21 \ 11 \ 2021

رجلٌ يمشي مع ظله على شاطئ أندلسي

فقدتُ ذكرياتي عن البلاد التي كانت تسمى سوريا! غرقت على الأرجح حينما عبرنا البحر بالقارب المطاطي من أزمير التركية إلى ميتيليني عاصمة جزيرة ليسبوس اليونانية، وكدنا أن نغرق.

عندما أمشي على الشاطئ، وتنتابني الذكريات كنوبات الحمّى، أفتش ذاكرتي عن تلك البلاد؛

عن الأماكن، الوجوه، الحوادث، القصص، الأفعال، الأصدقاء.. فلا أجد لها أثرا!

أجد الإسكندرية وحياتي التي تركتها هناك أمانة مع الأصدقاء على مقهى البوابين حتى أعود، ويدْعونها ليلا لتشرب معهم البيرة في سبيت فاير أو الشيخ علي.

فقدنا في رحلة العبور إلى بلاد الظلام التي تسميها كتب الجغرافيا السويد، أشياء كثيرة؛

هناك من فقد حياته في البحر
بينما أنا نجوت
لكن ذكرياتي غرقت.

شخص ما أدركته الطفولة في ألمريّه

في براري واســعة وخالية من الناس كأنها رســمت بناء على ذكريات الطفولة، أرعى أغنام مخيلتي. أتركها تقودني حيث تشـــاء، لا أنصِّـــب نفســـي قـائـداً لـهـا، كـمـا يفعـل الرعـاة المحترفون.

أمشـــي على تلال ألمريّـه، أفتح عينيّ كمن ينظر في وجـه حبيبهِ؛ المســاء ذاته! كأنه أحد المســاءات التي نســيتها في البلاد؛

النباتات البرية، الهواء الليّن، الغيم العابر الذي بلا أمنيات، الشـــمس التي تتوارى ببطءٍ خلف التلال كطفـل يتيم؛ العتمة التي تتســلل بكســل أميرة، حتى أجراس المراييع التي تنشــر [دون حاجة للكلمات] خبر عودة الرعاة وأغنامهم إلى البيوت، أكاد أسمعها. كل شيء يجري ببساطة كأنه تسجيل وثائقي اكتشـفته صدفة عن المساء الذي كان صديقي أيام الطفولة..

هنا في ألمريّه؛ يأتي المسـاء الذي أعرفه بحذافيره، لكن شـيئاً ما يأتي مختلفاً. ربما قصـــدتُ شـــيئاً بســـيطاً لكن التعبير خانني، أو ربما أعني شـيئاً هامشـياً لرجلٍ اسـتهلك خمسـين عاما من عمره، فقد أعتمتْ العين وتأخرتُ عن البيت ولم تتفقدني أمي أو ترسل أحداً للبحث عني.

- **ألمريّة:** أحد مدن الأندلس الرئيسية. بالإسبانية Almería

الشجرة التي نسيتْ اسمها

أمر بأشجار النخيل يوميا على شاطئ مالقا في Parque de Ejercicios del Paseo Marítimo. بينها أشجار معمرة، ويبدو أنها هرمت وهي تنظر للضفة الأخرى من المتوسط حيث عاش أجدادها.

أتوقف عندها دوما في طريق عودتي من مدرسة اللغة الإسبانية، فليس من اللائق أن تمر بشخص تعرفه وتتجاهله في الغربة.

وبينما الأندلسيون [وربما السياح] يمارسون الرياضة، نتحدث في شؤون الدنيا؛ كالغربة، والجذور والاستقامة والحنين.

قالت لي شجرةٌ شابة مرة «لا أشعر بالحنين، ولدت هنا، ولا أدري شيئا عن أي أرض أُخرى». قالت لي أمها «كما ترى أيها الغريب، عليك أن تحتفظ بذكريات التراب الذي جئتَ منه، تحولها لحكايات تروى وإلا ستفقد حنينك للبلاد والناس، وسيفقد من يأتي بعدك صورة البلاد مثل ابنتي».

- **Parque de Ejercicios del Paseo Marítimo**: بالعربية حديقة باسيو ماريتيمو للتمرين. وتقع بين كورنيش مالقا والبحر.

وصيةٌ بقلم رصاص

يا ألله

إن كنتَ موجودا وحيّاً وتســمعني: أريد قبرا في مقبرة أهلي، بجوار أبي وإخوتي وأمي. إن لم تســتطع ذلك يا ألله؛ وأنا أقدر الحجج المنطقية؛

أريد قبرا في الأندلس
في أي بقعة خالية
يسمح فيها دفن الغرباء.

برقية شكرٍ لزمنٍ قديم

على الســـاحل الأندلســـي الذي نزل إليه الفاتحون والغجر وتجار البهارات، أفكر بعمق شـديد باللاشـيء. أسـمع أغنية مرســـيدس ســـوســـا «شــكرا للحياة»، وأردد خلفها لتعلم الإسبانية هذه المرة!

على هذا الســـاحل، تجد ذكرياتٍ كثيرة تركها العرب، تحكي رحلتهم في الحياة وتغني شــكرها لهذي البلاد؛ لأنها منحتهم زمناً طويلاً
ليعيشوا فيها.

- **مرســـيدس ســـوســـا** (1935- 2009): بالإســـبانية [Haydée Mercedes Sosa] مغنيـة أرجنتينيـة تحظى بشــعبيـة كبيرة في جميع أنحـاء أمريكا اللاتينية والعديد من البلدان خارجها. حصـــلت على العديد من الجوائز المرموقة. اعادت صياغة الأغنية الشعبية اللاتينية وأسست حركة كتاب الأغنية الجديدة وصـــارت من أهم دعاة الأغنية اللاتينية الجديدة. اســـم الاغنية بالإسبانية [Gracias a la vida].

أغنيةٌ سومرية لتنام صوفي دون أحلام

... بينما أسمع الموليّا، على سفح قلعة جبر الفارو، وأنظر للشمس وهي تغرق ببطء؛ تأتي صوفي دهشةً ارتسمت سهوا على وجه طفل رأى البحر لأول مرة. تمشي بخفة كي لا تجرح صلاة الغريب.

«هل الزمن جرس؟» تسألُ، وهي تضع كفها الصغيرة في يدي المفتوحة. «الزمن! سلسلة متصلة من العثرات، أو ربما سلسلة مبعثرة من الفقد».

الأغنية جرح متوارث لم يُشــفَ. الأغنية محاولةُ انتقام من جرائم الزمن التي يرتكبها وهو يخوض حروبه مع الناس. الأغنية...

إذا نظرتِ في عينيّ
ســترين في إحداهما بشــراً بألوان متعددة، من أزمنة مختلفة، يحصــدون القمح دون مناجل، يغنون أغنية قديمة وُجدتْ مكتوبة على لوح سومري دفنته الريح لينجو من جيوش الزمان.

وفي العين الأخرى ســتجدين قصــيدة كتبتها لك إنخيدوانا كتعويذة لتنامي على الحد الفاصل بين الدنيا والسراب فلا تكدرك الأوهام.

18 \ 3 \ 2021

- **الموليّا**: نمط من الغناء الشــعبي في الجزيرة الفراتية يتكون من رباعيات شعرية، تكون أول ثلاثة أشطر بقافية واحدة والشطر الرابع ينتهي بـ [يّا]. يغنى مصحوبا بإيقاع الدف بشكل أساسي أو الزمارة.

أن تمضي في طرقٍ وعرة دون حياتك

كنا نمشي أنا وحياتي في الدروب، كانت تتبعني كظلي، نتسوق الخضار ونقرأ الكتب، نتبادل رواية الحوادث الساخرة التي مرت بنا ونضحك. لم نكن نفترق، حتى أننا كنا ننام في نفس الفراش ونحلم ذات الأحلام. نسافر إلى مدن جديدة لنخلق الذكريات؛ نزور الأماكن الأثرية ونكتب أسماءنا معاً على جدران هزمتِ الزمن، نلتقي الأصدقاء معاً ونتجاهل الأعداء معاً.

... لكن حين عبرنا بحر إيجة في القارب المطاطي نحو جزيرة ليسبوس لنصبح لاجئين، وقفت حياتي على الشاطئ، رفضت المغادرة، خائفة من الغرق ورافضة اللجوء. تركتني وحدي أعبر البحر، ومنذ ذلك الحين لم أعد أعرف عنها شيئاً.

ها أنا في الذكرى الثامنة للعبور، أقف وحيداً أعلى قلعة جبر الفارو في مالقا، أنظر للمدينة من علوٍ شاهق، أرى الميناء، الذي وصل إليه الفينيقيون، وبنوا المدينة، تركوها تعيش دونهم بعد أن غادروا الحياة. جاء اليونان والرومان والعرب عبر هذا الميناء أيضاً، دفنوا حيواتهم في المدينة ورحلوا إلى

أماكن أخرى دونها. أرى حلبة مصارعة الثيران Plaza de Toros de La Malagueta حيث ينهي الـMatador de Toros حياة الثور ويحوله طعاماً لبشرٍ يعيشون حياتهم بشكل طبيعي دون إحساس بذنب لفقد الثور حياته.

أنحدرُ نحو القصبة التي بناها العرب ليأتيها السياح من كل مكان ويخلقون ذكريات حياتهم بصور ملونة.

وحدي أمشي في الأندلس دون حياتي
التي بقيت على شاطئ بحر إيجة
وتركتني أعيش وحيداً
ألقي اللوم عليها بينما أدندن اغنية إسبانية
لو عبرتْ معي!
لأحبتْ هذي البلاد
ودونّا معاً ذكرياتنا مثل هؤلاء السياح.

20\ 01\ 2021

- **Plaza de Toros de La Malagueta**: بالعربية حلبة مصارعة الثيران المالقية.
- **Matador de Toros**: بالعربية مُصارع الثيران.

أندلسيون عائدون من رحلة طويلة

زمنُ قرطبة الذي مازال يجري

إلى ابن رشد

في مقهى أندلسي، على طاولة تجاور تمثال ابن رشد في قرطبة؛ أنظر إلى التمثال بهيئته العربية، بعمامته، بجلسته المهيبة كملك يحكم العالم بكتابه الذي يسنده على ركبته بيده اليسرى معاندا الفقه، فأرى نهر الزمن يتدفق من الكتاب ببطءٍ! أغمض عينيَّ فأرى نهرا يشبه الفرات ربما هو الوادي الكبير.

أرى ظلال أرسطو على المياه، أرى أنواراً خافتة في قاع النهر تسبح كأنها أسماك صغيرة فقدت رشدها، أرى أحرفا عربية بالكاد يمكن التعرف عليها تجري في النهر..

غريب أنا يا ابن رشد بلا عَلم يستر وحدتي ويرسم لي وطنا على الورق يحميني من أقدام المجهول.

تتعبُ نفسي من الذهاب إلى الماضي البطيء والعودة إلى الآن؛ الزمن الذي تناهبتْهُ السرعة، فأفتح عينيَّ؛

أرى الشمس المشرقة تلمع على أفخاذ النسوة القادمات من الشمال الأوروبي حيث العتمة والاختراعات التي جعلت الزمن يركض لاهثا ويجرف التأمل ومتعة الهدوء.

أرى سياحا بسحنات مختلفة جاؤوا من جهات العالم يلتقطون صورا تذكارية بجانب ابن رشد؛ كنت أريد أن أقف وأقول لهم أن الكتابة التي أسفل التمثال ولم تستطيعوا فك رموزها مكتوبة بالعربية؛ إنها لغتي.

- كُتب اسم ابن رشد بالعربية بالخط الكوفي على قاعدة التمثال «أبو الوليد ابن محمد المراكشي العالم الفيلسوف الطبيب».
- نحت الإسباني بابلولو ستيكو نيخو هذا التمثال سنة 1967.

شمس غرناطة

إلى لوركا

أصــعد نحو البيّازين مرافقاً ظلي. نســير بهدوء صــامتين كشــخصــين أدركتهما الحكمة على الطريق. يتقدمني ظلي كأنه مرشــدي. ينتظرني دائما عندما أتوقف لالتقاط صــور للأبواب والنوافذ التي أشـعر أنها رسـمت بأصـبع الزمن على الجدران.

في حواري البيّازين أحدّث ظلي بالعربية، فتتســع الطرقاتُ لي، أشــعر بترحاب يمد يده ويصــافحني بصــمت، أغلق خرائط غوغل وأضيّع نفسي هناك.

اسمع موسيقى خافتة، ضحكات ودودة لمراهقات، همهمات رجال بالغين، ترتيل قرآن بصــوت خافت، أنيناً مكتوماً، بكاءً شاحباً وصناجاتٍ تقترب من أذني.

أضع أذني على جدار تدلت منه عريشة ياسمين تضحك مع الشمس حول حادثة قديمة؛ لأتبين مصدر هذه الأصوات!

صمت. صمت متوجس يحلُّ فجأة، كأن الجدار شعر أني أتجسس على أهل المنزل.

أشعر بجوقة أطفال يتهامسون تتبعني. يتضاحكون كأنهم وجدوا بائعاً متجولاً للحلوى دون أن يكون معهم نقود. أسأل ظلي الذي صار ورائي ويمشي معهم: «من هؤلاء الأولاد الذين تتحدث معهم كأنك تعرفهم قبل ولادتك؟» ينظر إليّ باندهاش من رأى شمسا تحترق: «هؤلاء أولاد المورسكيين الذين نجوا من الرحيل».

أرواح المورسكيين تعيش في البيّازين بشكل طبيعي، كأنهم لم يغادروها أبدا. مازالوا يصنعون القدور التي يطبخون بها التاريخ والحكايات والخوف من التهجير، ويكتبون الأغاني بالألخميادو ويعلمون أولادهم الرقص والتوجس من الغرباء والصلاة الصامتة جهة الشمس.

أقف في باحة تطل على قصر الحمراء ألتقط صورا للشمس وهي تعلق نفسها على جدرانه، ولست متيقناً إن كنت رأيتها من بعيد ترقص في «جنة العريف».

لا أحد في حواري البيّازين سواي وظلي، فقد اختبأ العالم خوفا من «كورونا». فكرت أن أدخل قصر الحمراء وأعلن نفسي أميرا للحكايات التي ما زالت تطير في سماء غرناطة.

من البيّازين أنظر لقصـــر الحمراء المغلق وأفهم ماذا يعني أن تكون أعمىً في غرناطة.

19 \ 5 \ 2021

- **البيازين**: حي في غرناطة يشـرف على قصـر الحمراء سـكنه المورسـكيون ويتميز عمرانه بطابعه العربي. بالإسبانية Albaicín.
- **الألخميادو:** بالإســبانية Aljamiado لغة ابتكرها الأندلســيون كتبوا بها الإســبانية والبرتغالية أيضـا بالحروف العربية وتعرف أيضـا بالأعجمية Aljamía.

  في عام 1566م صــدر قانون يُحرّم التخاطب باللغة العربية أو التعامل بها، فقام المورســكيون بابتكار لغة جديدة تعرف "بالألخميادو" بحيث أصـبحوا يكتبون القشـتالية سـراً بأحرف عربية. تمخض عن هذه اللغة أدب هجين مختلط في شِــبه الجزيرة الإيبيرية؛ فهو أدب إســباني كتَبَه المورسـكيون بالحروف العربيَّة يكشـف عن اهتماماتهم اليومية ويعبرون فيه عن أفكارهم ومشــاعرهم. وبالتالي، أصــبح أدب الألخميادو وســيلة لحفظ وجودهم من الانقراض الثقافي والشخصي الذي كان يتهددهم.
- **جَنَّة الْعَرِيف:** بالإســبانية Generalife قصــر يقع بالقرب من قصــر الحمراء ويبعد عنه مســافة كيلو متر واحد شــيد في أواخر القرن الثالث عشــر الميلادي، ويقع شــمال شــرقي قصــر الحمراء، وكان يتخذه ملوك غرناطة منتزهاً للراحة والاستجمام.

تمثال العشَّاق

حينما زرتُ قرطبة بحثت عن تمثال العشّـاق، الذين عبروا بحـار الزمـان وعـاشـوا في الأبـد. لم يكن بعيـداً عن الـ Mezquita، كما يسـمي السـكان جامع قرطبة الكبير الذي أصـبح كـاتـدرائيـة Catedral de Nuestra Señora de la Asunción. تمثـالٌ بسـيطٌ لكفين على وشـك التلامس، تلامس عشـاق وليس مصـافحة غرباء أو شـخصـين بينهما مصالح دنيوية.

على قاعدة التمثال، اقرأ العشـق الذي مازال يسـيل لهفة من الكلمات باللغة العربية والإسـبانية، العشـق الجارف لولَّادة الذي يفيض عبر الزمن بماء اللوعة:

أغار عليك من عينيْ ومني
ومنك ومن زمانك والمكانِ
ولو أني خبأتك في عيوني
إلى يوم القيامة ما كفاني

تليها وحشـة ابن زيدون مؤرخاً لوعة الفقد في بلادٍ غاب عنها الحبيب:

يا من غدوت به في الناس مشتهرا
قلبي يقاسى عليك الهم و الفِكر
إن غبت لم ألقَ إنسانًا يؤنِّسني
وإن حضرت فكلُّ الناس قدْ حَضَرا

عشقتُ مراراً، ولم يكن بين من عشقت أميرة أندلسية، ربما كان ذلك خطأ الزمان والمكان. أمام التمثال تمنيتُ أمنية باطلة؛ لو أن الله، كمجاز للشعر، خلقني في الأندلس قبل ألف عام، لكنتُ حيّا الآن في إحدى ساحات مدنها. لو كنتُ عاشقا في بلادٍ تنصب تماثيل للعشق لبقيت ذكراي حكاية بكل اللغات.

- في حدائق كامبو سانتو دي لوس مارتيريس، في قرطبة، عند أبواب الحي اليهودي، يوجد نصب تذكاري للأيديMonumento a Los Enamorados يسميه أهل قرطبة «نصب الأيدي». شارك في هذا العمل المهندس المعماري فيكتور إسكريبانو والنحات بابلو يوستي، ودشن عام 1971، لتكريم قصة الحب التي جمعت الشاعر ابن زيدون والأميرة الشاعرة ولادة في العصر الأموي الأندلسي.
- **Mezquita**: بالعربية المسجد
- **Catedral de Nuestra Señora de la Asunción**: بالعربية كاتدرائية السيدة العذراء

الهاوية التي على جانب الطريق

إلى الأمير الشاعر أبي البقاء الرُندي

في خطانا نقيس المسافة. المسافة لعنة الغريب. المسافة مقبرة الأحياء. المسافة أخت الزمن؛ توأمه الذي يرافقه رحلة الحياة.

أمشي فوق «جسر العرب» في رُندة، أنظر إلى مكان خطوتي القادمة وأحصي المسافة بين قبور من بنوا الجسر وأغنياتهم التي تركوها خلفهم، وأسمع صوتَها خافتا يتسرب من الحجارة.

انظر برهبةٍ للهاوية التي يقطعها الجسر كي ينقل الناس لمصائر أخرى مختلفة، ربما لا تختلف كثيرا! فقد عبر هذا الجسر أناس أرادوا تجنب الهاوية التي صنعتها المسافة ومضوا مسرعين خفافا إلى هاوية الأيام التي لم يروها.

في ساحة أبي البقاء الرُندي، أسند ظهري إلى مئذنة سان سابستيان التي يعلوها الصليب، أتأمل البيوت وأحاول تخمين أعمار النوافذ التي عبرت كل تلك العصور وأبكي.

لا أبكي حسرة على ضياع البلاد، ولا أنظم دمعي قصيدة في رثاء الأندلس، رغم أني أدرك مثل الأمير معنى الضياع، بل تبكيني عبرتُه التي ما تزال ساخنة، بينما أتأمل اسمه الذي عاند الدهر وعاد ليستريح في موطنه.

أيها الأمير! ها سرّتك أزمان، ملكت البلاد وأنت ترابا، و «هذه الدار التي لم تبق على أحد» أعادك أهلها من ضفة المتوسط الأخرى أميراً لها، متخطين البحر ومعاندين الشمس ودورتها، فالدنيا [لا يدوم على حالٍ لها شان].

ها أكرمك قومك الذين لم تغوهم المسافة ولم يعبروا البحر مثلك، بل عبروا الوقت كله ورفعوا اسمك بأحرف لاتينية PLAZA ABUL BEKA كأميرٍ أبدي لهذي البلاد.

دلّني ايّها الشاعر كيف نجوتَ! مزّقني الدهرُ، ولستُ من قوم يطوبون الراحلين ملوكاً. دلّني أيها الأمير على طريق يتجنب الهاوية، فقد ذهبتُ من جنوب العالم إلى أقصى شماله طالباً النجاة وما نجوت. تركت خلفي [مثلك] كتابا يرثي البلاد التي غادرتها لن يذكره أحد. وها أنا أبكي المتاهة التي تسكنني، في مُلكك. تعبرني امرأة مسنة ذاهبة للصلاة فأخفي دمعي وأمضي بخطى بطيئة محاولا تجنب الهاوية إلى حين.

30 \ 5 \ 2021

PLAZA ABUL BEKA: ساحة أبو البقاء.

زفرتي الأخيرة

إلى أبي عبدالله الصغير

قلت لصوفي، التي كانت نجمةً اختارتْ سماء مالقا، لتحرس خطواتي من الضلال، لنذهب إلى El Puerto del Suspiro del Moro. وكانت تحب الحكايات التي ترعى ففي الجبال واكتشاف الحياة وآلام الأقوام المندثرين، وتعرف أني من بقايا أقوام أكلهم الزمن والمدونون، وأتعلق بأثار الراحلين.

لم يكن هناك شيءٌ لافتٌ في المكان، لكن الأساطير تخلق المكان وتزيّنه بالزمن وتكتب له الحكاية.

وجدتُ على الأرض أثار دموع لرجل مهزوم، وجدتُ أثار ذكريات لم يبقَ منها إلا حكاياتٍ متضاربة لا يمكن التحقق منها.

وجدتُ الهزيمة ناصعة في العراء، قلت لصوفي لِنَبِتْ هنا في هذا العراء حيث أجد أثاري كرجلٍ مهزوم.

Puerto del Suspiro del Moro: ممر جبلي في سييرا نيفادا الإسبانية ومعناه بالعربية «زفرة العربي الأخيرة». يقال إن أبي عبدالله الصغير آخر ملوك غرناطة وحاشيته عبروا هذا الممر بعد أن طردهم من غرناطة عام 1492م الملوك الكاثوليك الزوجين فرناندو الثاني ملك أراغون وإيزابيلا الأولى ملكة قشتالة. ويأتي اسمه من اللحظة التي تنهد فيها أبو عبدالله الصغير بصوت عالٍ بينما كان ينظر إلى الوراء ويشتاق إلى وطنه وملكه الضائع، وهو الفعل الذي يقال إنه دفع والدته إلى توبيخه، وإطلاق العبارة الساخرة الشهيرة «ابكِ كالنساء مُلكاً لم تحافظ عليه كالرجال».

تائهٌ في برارٍ خجولة

ساعةُ يد مرسومة بقلم

عندما تتحدث عن العام 2011، صار عليك أن تقول: «كان ذلك قبل عشر سنوات»!

أنظر

كيف تمر الأيام ثقيلة بطيئة وكيف تمر السنون راكضة؛ خفيفة!

شاهد

عمرك الذي تنادمه الأيام البطيئة، كضيف خجول، تمرّه السنوات مسرعة، لتأخذ بيده وترافقه إلى المقبرة.

15 \ 03 \ 2021

أيُّها النائم

صباح الخير أيها النائم
أحييك بلطفٍ؛ لكن بمودة واضحة، لأنك شخص مسالم.
بغض النظر عن جنسك وعرقك ودينك ولغتك؛ فالبشر يتساوون أثناء النوم.

والحقيقة التي يعرفها الجميع، إننا لا نحتاج لغة لإلقاء التحية على شخص نائم، ولا حتى لغة الإشارة.

أيها النائم
تحية لك أينما كنت، لأنك لا تؤذي كائنا أو جمادا، فالشر في الأرض والكواكب الأخرى يصنعه أولئك الذين غادروا النوم

أو لم يناموا بعد.

في وداع الراحل العزيز

أيها الزمن؛

لِمَ هذه السرعة كأنك تلاحق السراب! هل ولدت من رحم أرنب أم من قرن غزال!

وما هذه الثآليل في وجهك!

هل كانت دوما موجودة في مكانها أم أن نظرنا كان ضعيفا!

أيها الزمن؛ يا ابن راقصة الفلامنكو التي باعت جسدها للعابرين مجانا في بعض الأحيان أتمنى أن تموت. تنتهي على الأقل مثل نهاية دون كيخوته

سأقيم لك حفل وداع

وأحفر قبرك بنفسي

وأدعو جميع الصديقات

ليتبولن على قبرك.

إدراك متأخر

احتجت زمنا طويلاً؛ حملته في حقائبي، وســـافرتُ إلى بلاد كثيرة، لأدرك أن روحي منثورة في البراري؛

البراري الشاسعة بنباتاتها البسيطة وأشجارها التي تعيش
وحيدة أو في أسر صغيرة
البراري التي لم يخربها البشر.

في الكناري تمشي الدهشة عارية

العيد الأبيض

في الكناري؛ تمشي الموسيقى حافية في الشوارع، قد تصادفها عارية بين القرى أيضاً. عشتُ في أرافو، عاصمة الموسيقى في جزيرة تِنرِيفي. عثرت عليها صدفة في دفاتر صديق.

في أيام الصيف تقام احتفالات يومية بعيد ميلاد الموسيقى! كأن الوتر الأول وقيثارته هاجر من بلاد سومر واستوطن هذه الجزر التي تشكلت من دموع عاشقة، يبست في المحيط.

كرنفال للزراعة؛ حيث تجر الثيران الضخمة عربات ملونة بأغانٍ ريفية. كرنفال للنبيذ كي يفقد الحكماء الانتباه وينسون النصائح المدونة في الكتب القديمة، كرنفال للشباب يرقصون فيه بشكل جماعي كأن أجسادهم منسوجة من الهواء، احتفال بموسيقا الكاريبي؛ حيث ولدت "المرارة" التي صار اسمها الباتشاتا واستعمرت هذه الجزر،

احتفال بموسيقا أمريكا اللاتينية التي ولدت في الحانات والحقول وأورثت الدنيا سلالات هجينة ومتنوعة من الموسيقى الجامحة كالخيول البريّة...

وبينما الناس يرقصون كخيول عطشى تركض نحو الماء، يُوزع الطعام والنبيذ والابتسامات مجاناً.

أحب ارتداء الأبيض في نهارات الصيف كانتماء لسرب لقالق مهاجرة. كنت عائداً من جبال تقيم بشكل دائم كرنفالا للعزلة، حينما وجدت القرية بيضاء! كأن الغيوم وهي تمشي على السفوح تعثرت بالناس واحتضنتهم جميعاً، صاروا نغمات بيضاء تقفز على سلمٍ موسيقي في شوارع القرية.

دون قصد أو انتباه، وبلباسي المعتاد صرت جزءاً من اللحن، في المساءِ الذي جاء بخطى متعثرة وظل وجهه مضيئاً مائلاً للبياض. بدأت الصبايا، الخارجات للتو كحفنة من الجنة، يرقصن كحمامات بيضاء عالقة في شرك، مع رجال خرجوا على عجلٍ من إحدى روايات ماركيز..

الكلمات ترقص مرتديةً مجازاتٍ بيضاء
المجازات غيوم هبطت إلى ساحة القرية لترقص
والنبيذ الأبيض ببراميلٍ خشبية متاح مجاناً!

«لماذا احتل البياض القرية؟» سألت كنارية تعرفت عليها في بار القرية. «إنه العيد الأبيض». قالت وهي ترقص كحمامة بيضاء في شرك.

جزر الكناري: اشتُق اسم الجزر «الكناري» من الاسم اللاتيني Canariae Insulae والذي يعني جزر الكلاب. وتقع الجزر في المحيط الأطلسي قبالة الساحل المغربي. والجزر منطقة حكم ذاتي موسع تتبع إسبانيا. تنقسم إلى مقاطعتين: سانتا كروز دي تِنرِيفي ولاس بالماس. وتتشكّل الكناري من الجُزُر التالية [حسب الحجم]: تِنرِيفي، فويرتيفنتورا، غران كناريا، لانزاروت، لا بالما، لا غوميرا، وإل هييرّو. الجزيرة الوحيدة الأخرى المأهولة بالسكان هي لا غراسيوزا وتتبع لانزاروت.

العيد الأبيض: يحتفل بالعيد الأبيض في أرافو في السبت الثاني من أغسطس، ضمن الاحتفالات التي تجري طوال شهر أغسطس على شرف شفيع أرافو القديس خوان ديغولادو، وكذلك القديسين أوغستين و رناردو. يقام الاحتفال بهذا العيد وبقية الاحتفالات في ساحة سان خوان ديجولادو في القرية وخلال العيد يرتدي جميع الحاضرين اللباس الأبيض.

تتوج احتفالات شهر أغسطس بموكب الحج في الأحد الأخير منه، حيث تمتلئ الشوارع بالعربات المزينة التي تجرها الثيران، والفرق الموسيقية والمواكب الدينية تشارك في الموكب العديد من الفرق الموسيقية الشعبية التي ترتدي الأزياء التقليدية المحلية. يحيي هذا الحدث ذكرى المعجزة التي قيل أنها حدثت في عام 1751، عندما تدخل القديس أوغستين لإرسال عاصفة أزالت الأنقاض من نبع أنافينجو الذي دفنه انهيار أرضي.

قرية أمي

المشيُ صلاةُ الخائب، علاج الروح من ورم خبيث. المشيُ استمطار النسيان لأرض الذكريات.

بين أرافو وغومار، أمشي ليلاً بين القرى؛ أمشي في تلك الديار حاملاً حقيبةً على ظهري خالية من الآلام، وتسكن الطمأنينة قلبي في ليلٍ يخلو من النحيب.

أغني مواويل فراتية دون اتقان اللحن ودون حفظ الكلمات، فتعترضني لوحة كبيرة عليها اسم قرية؛ وهذا أمر طبيعي في بلاد لا تخاف الأسماء. قرأته بسهولة بأحرفه اللاتينية الكبيرة: فاطمة!

كان الوقت ليلاً، ليلٌ فارقته الذنوب، والاسم مكتوبٌ بالأبيض ومضيئٌ، فقد بدت أحرفه نجوماً قطفت من السماء وبجانبه قلب حبٍ أحمر خالٍ من الدماء كأنه قلب عاشقة ذاقت الحب للمرة الأولى.

وحينما بحثت على غوغل الذي صار نبيَّ المعرفة، وجدت أن فاطمة قديسة في هذه البلاد.

ها أنا، في رحلتي التي تركتْ الأمس نائماً في البراري، وصلتُ البلاد التي كرّست أمي قديسة.

17 \ 7 \ 2019

كندالاريا

على الشاطئ ينتصب ملوك الغوانش، يحرسون المدينة، كأنهم خرجوا للتو من أسطورة غرقت في المحيط. يديرون ظهورهم للماء ويتوجهون نحو حشد غير مرئي من السكان يخبرونهم عن نصر حققوه في بلادٍ بعيدة.

02 \ 09 \ 2019

كندالاريا: بالإسبانية Candelaria مدينة ساحلية صغيرة في جزيرة تِنرِيفي.. أما الغوانش فهم السكان الأصليين لجزر الكناري.

غريبان على قمة جبل شاهق

في الأعالي، حيث الأبد قريب من العين والأشجار تتحدث لغات عدة، حيث تحجب الغيوم رؤيا الأرض التي دارت عليها الحروب والمجازر وقصص الحب، نجلس أنا ونسرين بين السماء والغيم نتبادل أحاديثاً اعتيادية حول البلاد التي فقدناها؛ فقد فقدت بلادها بحادث سير وماتت بلادي تحت التعذيب ونتمنى لو كنّا ولدنا في هذه الجبال.

عندما تلعب الشمس لعبة الضوء، نرى سانتا كروز دي تِنرِيفي عاصمة الجزيرة كأنها أحجار بيضاء متراصة في بقعة منسية بين الجبال وساحل ضيق على الأطلسي، نتحدث عن المصادفات التي تعجز عنها مخيلة ماركيز.

فأنا «سويدي» هارب من العدم وهي «إسرائيلية» نجت من مجزرة، نلتقي على أعلى قمة في جبال الكناري الشاهقة، نروي آلامنا وضحكاتنا بلغة عربية فصيحة وندخن الحشائش الخضراء ببطء وسكينة ثم نأوي إلى خيامنا متوسدين الغرابة والفَقد.

ليلٌ دون هواجس معتمة

أمشي على حافة الطريق الاسفلتي وحيدا بعد منتصف الليل. عائداً من البحر نحو قريتي في الجبال، على ظهري حقيبتي وأحمال زمنٍ قديمٍ من الخيبة.

جئت هذه البلاد باحثا عن حفنة من تراب لأزرع بذورا حملتها من البلاد التي قُتلتْ علناً وذهب دمها هدراً. أسير في الليالي بين القرى دون خشية الناس والكلاب الكثيرة التي تنبح العابرين بشكل مستمر كأنها في مهمة رسمية.

بعد منتصف الليل، بعد أن تغلق الحانات والمقاهي في البلدات المجاورة، أعود إلى قريتي مشياً. في آخر ليلٍ مبهج كعادة الليالي هنا، توقفت بجانبي سيارة وفُتح الباب لي، اقتربتُ منها دون خشية اختطاف من مخابرات الدولة أو لصوص، تحدث معي السائق بالإسبانية التي لا أجيد منها حينها سوى «Holla» و «Gracias» فجاوبته بالإنكليزية، لكني صعدتُ معه دون خوف.

أعادني الرجل الذي تحدث دون ابتسامة مغشوشة، إلى الزمن الذي جئت منه، إلى قرانا، حيث كنا نفعل ذلك باعتيادية شديدة كواجب مستدير، أعني أن نحمل العابرين والغرباء والمستطرقين.

02 \ 10 \ 2019

Holla و Gracias: مرحبا و شكرا بالإسبانية

فاصلة بين زمنين

العودة سائحا إلى الإسكندرية

بينما أعبر شــارع ســعد زغلول نحو البحر في الإســكندرية، أحسست بالشتاء! وضعت يديَّ في جيوبي كما يفعل الناس في بلاد العالم بداية الشــتاء؛ عدا البلاد المقفرة من البشــر والأحاسيس، وفكرت بمصير خطواتي.

خليط من الندم والدفء والحب والبلاهة والعدم، كأني في دكانٍ بائع عصير. ربما كان هناك شخص آخر يمشي معي في نفس الشارع، بين ساحة سعد زغلول وفندق سيسل نحو البحر، ولديه نفس الأحاســيس، لكنه لم يتعلم صــياغتها بطريقة معقدة مثلي.

أنـا ابن هـذه المـدينـة التي أكلهـا الزمن، ابن هؤلاء النـاس الذين يمضــون بخطى مبهمة نحو الحياة، يتنفســون هواء البحر مجانا، ويسـخرون من الدنيا بوجوه شــاحبة وخطى متعبة.

03 \ 12 \ 2022

أريد أن أقرأ كتاباً

أريد أن أقرأ كتاباً؛ كتاباً يجعلني أشـــعر بالشـــغف لإكمال القراءة. أقرأه بتمعن من يبحث عن مفتاح وقع منه في ليلة مظلمة، لا بنصـــف عين مُقلِباً الصـــفحات، قافزاً الكلام المعروف أو المكرر أو أفكار الكاتب الإيديولوجية الســاذجة في العموم.

أريد أن أقرأ كتاباً يجعلني أدقق في صـــياغة الفكرة، وأقول: يا لبراعة الكاتب!. والبراعة هي صـــقل الأشـــياء، أو تقديم الأشـياء بأقل الكلام وأَكَمل معنى. أو يا للشـيطنة؛ إنها فكرة بارعة لم تخطر على بالي من قبل.

أريد أن أقرأ كتاباً عن الناس في محيطهم وفي دواخلهم، في أرضهم أو في نزوحهم، في غربتهم واجتماعهم.

كتاب يروي الطريق
في رحلة الحياة.

يا عين هِلّي دمع

... ويُقال عين الزمان ويُقال عين الحقيقة ويُقال عين الأعور ويُقال عين الشمس ويُقال عين الماء ويُقال عين المكان ويُقال عين الليل ويُقال عين العاهرة ويُقال عين الطير ويُقال عين الصقر ويُقال عين زرقاء اليمامة ويُقال أعمى ويُقال عيني.

عيني التي ترى وعيني التي تسهر وعيني المغمضة وعيني التي تنام وعيني المطفأة وعيني التي تبكي وعيني التي تنظر وتنتظر وعيني التي تحب وعين المحب كليلة.

فيا عيني الكليلة؛ كلما صاح المغني يا عينُ نظرتُ إليه وكلما نادى الحبيب يا عيني نظرت إليه وكلما بكتْ عين نظرت إلى وجه حاملها وكلما جرت عيون الماء سبحتُ بها وكلما فاضت عيون السماء بالبكاء تذكرتُ نيرودا وكلما التهبتْ عين الشمس تذكرتُ نجاة وكلما رأيت جثة الشوق دون قبر تذكرتُ مصيري.

فيا عيني التي تنطفئ حين يأخذني مصيري كيف ستبكيني!

قصائد إيلينا

على حائط الحياة

إيلينا؛
الندم لم يكن رقصة يوما
إنه مسمار الزمن
الذي نعلق عليه ذكرياتِ الهزائم.

2 \ 05 \ 2023

أمنيةٌ لن تتحقق

ليتني رقصـــةٌ! رقصـــة ولِدتْ في الكاريبي، كالباتشـــاتا. أعني سـأكون روحاً، تهاجر للدنيا كلها، وتحل في أجسـاد البشـر الفرحين دون خشية الموت.

6 \ 05 \ 2023

انتظارٌ يتكرّرُ ببطءٍ

صباح الخير إيلينا؛

أراقب بحســـدٍ خطواتكِ التي لا تتعثر وأنت تبذرين البهجة في براري الرب. أتأمل يديك وأنتِ تُعلمينِ الناس الطيران.

10 \ 05 \2023

هزيمةٌ مجانية

من المؤسف يا إيلينا
ألا يكون للهزيمةِ معنى!

12 \ 05 \ 2023

خطى متلعثمة

ها قد مرّ بنا الزمنُ
مرّ بنا زمن طويلٌ، إيلينا
كانت خطواتنا ثقيلةً ومرتبكة على مسرح الدنيا
وبينما الزمن كان رشيقا متدفقا كلغة عامية
كنا متلعثمين كالفصحى
أعرف أنه لم ينته كل شيء
لكن التعب أنهك خطواتنا.

14 \ 05 \ 2023

بطاقةٌ شخصية عابرة للحدود

إيلينا
أنا لستُ كتاباً ولستُ فكرة
أفكاري مجرد قطيع أغنام ترعى في البرية
ربما تأكلها الذئاب
ربما يسرقها أحد ما
ربما تمرض ويصعب علاجها
ربما تموت لأسباب مجهولة
ربما تصاب بوباء عام كالطاعون مثلا
ربما تتوالد وتتكاثر
يربيها أحد ما ويبيعها في الأسواق

كل هذا لا يعنيني
فأنا لا أملك أفكاري
أخلقها وأتركها تسرح في أرض الرب الرحبة
كأغنام غير مدجّنة
كما أنك لستِ رقصتك ولا تمتلكينها
إنّها شيء آخر غيرك أنت
كذلك كتبي وأفكاري أنفصل عنها ما أن تخرج للحياة
أراقبها بحياد
وهي تدبّر شؤونها بنفسها

هناك من يعتقد أن قتل هذه الأفكار
يعني قتلي!
هذا وهم، إيلينا
أنا لستُ فكرة ولستُ كتابا. أنا شيء آخر يصعب شرحه لك
وأنت مشغولة بالرقص.

15 \ 05 \ 2023

شجرة يتساقط منها الزمن

قلت لك إيلينا؛ إنه أمر محزن أن تفقد الهزيمة أي معنى. قد لا يكون ذلك مفهوما بالقدر الكافي؛ ويبدو مجرد مجازات.

في الروايات تبدو المصائر أوضح وأبسط، لأن من يرسمها بشريٌ، كائنٌ محدود المعرفة. هناك تبدو رحلة الحياة، أي رحلة الواحد إلى مصيره، أو رحلة الواحد في مصيره حتى نهايته، طويلة، مملة وركيكة في بعض الأحيان.

في الحياة نفسها تحدث الأمور بشكل مختلف، بشكل معقد ربما، بشكل غير متوقع ولا مرسوم، هناك دائما مفاجآت لا يمكن لكاتب تخيلها، سواء كان مبتدئا قليل الخبرة، أو محترفا. في الحياة يحدث كل شيء بشكل خاطف. الحياة، حياتنا كلها في عمر الزمن جزء من لحظة برق لا أكثر.

هناك تأويلات كثيرة لعبارة «وا أسفاه لم يعد للهزيمة معنى» وقد نقولها بشكل مختلف أيضا «إيلينا؛ حتى الهزيمة دون معنى».

في رقصة البرق نحو مصيره تفقد أشياء كثيرة معناها.

16 \ 05\ 2023

حقيبة يحملها الزمن على كتفه

صباح الخير إيلينا
بالأمس كنت أريد أن أقول لك
لقد غدر بنا الزمن
إذ فجأة خطف حفنة من أعمارنا
وركض مسرعا
حفنة لا يمكن استرجاعها
خذلنا المكان
مرغمين مشينا نحو بلاد لا نعرفها
مشينا حفاة نريد ان ندرك الظل
نسينا خطواتنا في أرض بعيدة
لا نعرف الطريق إليها
ونسينا رقصاتنا في زمن خطف منا
كنت أريد أن أقول لك
أشياء تائهة كهذه
لكنك كنت مشغولة بالرقص.

18 \ 05\ 2023

وشمٌ ينزف

قالت المغنية إن الزمن يداوي الجروح.

هذا صحيح، إيلينا؛ لكنها لم تقل شيئا عن الجروح الجديدة.

كان أجدادي السومريون يقولون بولادة الزمان كل رأس سنة، ولكل زمان جروحه. الحبُ سيف الزمان الذي لا يترك عاشقا دون أن يرسم وشما ينزف على ظله؛ والنسيان يد الزمان التي تداوي الجروح.

20 \ 05\ 2023

كيف تحب إيلينا أغنية

قبل أيام كتبتْ نسـرين «أتمنّى أن يحبّني أحدٌ بالطّريقة الّتي أحبّ فيها أغنية».

وأريد أن أسـألك كيف تحبين أغنية، إيلينا. فكما هو واضح فإن الناس تحب الأغاني بطرق مختلفة، كل شـخص يحب أغنية بطريقته، كما يحب الناس بعضهم.

أنا أعرف أنك ترقصـين الباتشـاتا على ألحان أغان تحبينها ولكن هذا لا يجعلنا نقول «عندما يحب شخص أغنية فإنه يرقص عندما يسمعها».

هناك أغان تبكينا عندما نسمعها. نحبها، ولكن لا أحد يريد البكاء متطوعا. بعض الأغاني نحبها لأنها مرتبطة بزمان ومكان وشخوص، إنها مجرد محاولة لإعادة الزمن، الزمن الذي لم تستطع البشرية إيقافه، ناهيك عن إعادته.

عندما سألتني كريستينا، معلمتي الإسبانية، عن أكثر أغنية أحبها. قلت له دون تردد Gracias a la Vida أغنية حزينة عن الحياة، ربما انتحرت مغنيتها، ولا تصلح لرقصة الباتشاتا، ولكني لم أسمع هذه الأغنية منذ سنتين. ربما هذه طريقتي في الحب.

21 \05 \ 2023

أغنية بأشرعة ممزقة

إيلينا، أريد أن أكتب لك أغنية. أغنية نترجمها إلى الإسبانية؛ يلحنها أحد الملحنين الدومينيكان الهواة، لترقصي عليها الباتشاتا. أغنية بسيطة تقول كلماتها:

أريد أن أبحر في سفينة
سفينة شراعية من سفن القرن السادس عشر
دون بوصلة
ودون أن يكون هدفي اكتشاف قارة جديدة

أريد أن أبحر في سفينة
نسميها «كولومبوس الجديدة»
بأشرعة ممزقة وحزينة
وعلى ظهرها عازف غيتار أفريقي
ومسرح صغير
يكفي لرقصة الباتشاتا

أريد أن أبحر في سفينة
لا تعاند الزمن ولا تعاكس التيار
ولا تعرف مصيرها ولا وجهتها
كأنها روح تائهة في الأمس البعيد

أريد أن أبحر في سفينة كهذه، إيلينا
إذا كنت سترافقيني وترقصين.

25\ 05\ 2023

فيلم غربي عن حياة مهزوم

إيلينا؛ بينما ترقصين، سأروي لك جزءا من حياتي. لا تخفضي صوت الموسيقى، فانت لن تفهمي شيئا من شخص يتحدث إليك بالعربية.

في الأفلام الأمريكية وعندما يريدون إخفاء جيل الآباء ويظهرون جيل الأبناء يكتبون هكذا 15 Years later أو على الأقل 10 Years later. هكذا يتجدد مسرح الفيلم، الحياة التي في الفيلم وشخوصها وأحداثها.

في الأفلام الغربية، يذهب اولئك الذين هُزموا في الحروب، او الذين هزمتهم الحياة عموما إلى أماكن بعيدة، حيث الثلوج والأكواخ الخشبية، كألاسكا أو القطب الشمالي او حتى قرية مهجورة في المكسيك، أو مزرعة ليست على طريق أحد، ليعيشوا حياة العزلة. حيث لا يعرفهم أحد ولا يبنون علاقات إلا بالحد الأدنى الذي يختارونه.
بالتأكيد أنت تعرفين هذا أكثر مني، ولا أريد أن أحدثك عن السينما، سأحدثك عن حياتي، أو حياتنا؛ أقصد الناس

المهزومين مثلي. رغم أننا لم نحارب يا إيلينا ولكن هزمنا في الحرب. صحيح أننا لم نشارك في أي معركة، لكن بالنتيجة كانت حربنا خاسرة وهزمنا. هزمتنا الحياة بعد ذلك، وذهبتُ مهزوما إلى شمال العالم، آخر مكان مأهول في شمال الكرة الأرضية، حيث الثلوج وغزلان الرنّة والناس الذين يمشون على الزلاجات. لا يريد شخص مهزوم مكانا أفضل من هذا.

لكنهم لم يسمحوا لنا بالعزلة، أجبرونا على الحياة، أعادوا شريط الحياة التي هزمتنا، غير آبهين بالزمن والهزيمة. أجبرونا على الاندماج بحياة لا نعرف عنها شيئا وبلغة لا نفهمها. أجبرونا على الحديث يوميا مع الناس بهذه اللغة.

أعادونا إلى الزمن نفسه الذي هزمنا 12 Years before.

كان ذلك أشبه بمعسكرات السُخرة التي عمل بها مهزومو الحروب في العهد الروماني.

ارقصي، إيلينا، بينما تسمعين الموسيقى الإسبانية ولا تلق انتباها لحكايتي، فماذا تعني حكايةٌ عن العزلة حدثتْ قبل وقت طويل لسيدة جميلة ترقص التشا تشا.

27\ 05 \ 2023

رقصة الحب المخادعة

إيلينا، ما رأيك أن تطلقي رقصة للحب! سوف يرقصها أولئك الواقعون في مجاز الحب. الذين يحلمون به. الذين يحاولون التقرب من شخص آخر بالرقص.
الذين دمر حياتهم الحب؛ سيرقصونها بحماس لاستعادة الذكريات، ستبتّل أجسادهم بعرق كأنه دم قربان لإله غائب.
سيرقصها المراهقون الذين يحلمون بتسريع الزمن للوصول إلى شجرة الحياة الباهتة. سيرقصها المخادعون الذين يزعمون وقوعهم في الحب بينما يفسدون الهواء في فضاء الحالمين. سيرقصها الغرباء واللاجئون حينما يركضون خلف سراب الحنين.
سكان الأرض جميعا سيرقصون رقصتك هذه. وأنا أيضا سأرقصها. لتكن بسيطة غير منهِكة، فأيّاً يكن التعبير الجسدي في هذه الرقصة، فحاملها هو الحب.

28\ 05\ 2023

رقصة الغريب

ولدتُ على ضفاف البليخ، النهر المقدس الذي شربت منه الآلهة السومرية، وكل سلالاتها من بعدها حتى إبراهيم.

شربتُ منه وسبحتُ فيه. وردتُ ماءه طفلا لأسقي أهلي. عشت بجواره فلاحا، منذ طفولتي كنت أروي المزروعات من مياهه. لم أكن بدويا ولم يكن أهلي رحالة. لم أكن محاربا أيضاً، ولم أحلم بفتح البلدان يوما، لكني وجدت نفسي يوما في شمال العالم.

عشت بجانب بِحارٍ عديدة وأبحرتُ في الأبيض المتوسط والأحمر والخليج العربي وبحر إيجة والبوسفور وبحر

الشمال والبلطيق والأطلسي وبحار أخرى نسيتُ أسماءها، والآن أنا ذاهبٌ إلى بحر العرب والمحيط الهندي، لكني رغم ذلك لم أتقن حياة البِحار وما عرفتُ أن أكون بحارا. كنت دائما فلاحا أحرث الأرض، ببصري على الأقل.

بقيت على اليابســـة، أفكر بمصـــيري كمن يفكر بمصـــير صديق تعرف عليه في رحلة. أجلس على الشواطئ ساعات طويلة، وحين تنتابني الأحلام أنتظر الســـفن. أنتظر ســـفنا تأتي. كنت غريبا وأريد ســـفنا تأتي وتحمل أناســـا أعرفهم. أعرف أنها مجرد تهيؤات غريب، لكني بالفعل كنت دائما أنتظر سفينة ينزل منها على شاطئي أناس أعرفهم، أصدقاء وصديقات.
لم أنتظر لمرة واحدةٍ حبيبةً تأتي بها السفن.

أظنك تدركين معنى كلمة «الغريب» بالعربية الآن، إيلينا. أريدك أن ترقصـــي من أجل هؤلاء الذين مثلي رقصـــة تسمينها رقصة الغريب.

29\ 05 \ 2023

رقصة الشجرة المعمرة

إيلينا؛ لا يبدو أن لك علاقة قوية مع الأشجار. لا أدري كيف خطر لي هذا قبل أيام عندما مررت بجبال صخرية جرداء. ربما أكون مخطئا، فالرقص ولد من علاقة أزلية بين الأشجار والريح، والموسيقى هي صوت الأشجار عندما تغني.

مرة، في نص سابق، تمنيت أن أكون شجرة، شجرة هرمة ومعمرة؛ ليحفر العشاق اسماءهم على جسدي.

أمي كانت شجرة، أمي كانت شجرة كبيرة ومعمرة وكنت أحد أغصانها. لأنك لم تعلميني الرقص مع الريح، كسرتِني وجعلتِني حطبا للحياة.

4 \ 06 \ 2023

رقصة الشمس الصامتة

الشـمس في مسـقط عارية طوال الوقت وصـامتة أيضـا، تنظر للبشـر دون أن تتكلم. سـألت هنديا، يعيش في عُمان منذ القرن الثامن عشـر، فيما إذا سـمع الشـمس تتحدث يوما. جاوبني بجدية: لا؛ سـيدي، الشـمس لا تتحدث مع أحد في هذه المدينة، نحن نتحدث معها بغضـب أحيانا، ولا أدري إن كانت تسمعنا.

في بلادك؛ يـا إيلينـا، الشـمس لا تظهر للنـاس عـاريـة، استسـهال المجاز سـيقودني إلى «ترتدي الغيوم»؛ لكن الأمر لا يتعلق بالغيم، بينكم وبينها حاجز أزلي؛ فأنتم لم تعبدوا الشمس يوما مثلنا. تأتون إلينا لتتحدثوا إلى الشمس.

تعالي إلى عُمان وأعلمك رقصة الشمس، وإذا أمكنك مزجها مع الباتشاتا ستنشرين الحرائق في هذا العالم.

5 \ 06 \ 2023

رقصة تائهة تعثر على وطن

في عُمان وجدتُ من يغني بالإسبانية! كأني عثرت على حبيب تحول إلى نجمة وانقطع أثره.
في قرية عمانية يعزف شخص من البرتغال على الغيتار وتغني سيدة بالإسبانية، كأن صوتَها نهرٌ فقد والديه للتو.
أعتقد أنها غجرية أندلسية.
في عُمان، وسط الناس الذين يغنون بالبرتغالية والإسبانية، ويرقصون كأنهم سيغادرون الدنيا غدا، شعرت كأني وجدت وطنا ضائعا يا إيلينا.

12 \ 06 \2023

رقصة تخدش الحياء العام

أحب موسـيقى الشـوارع، إيلينا. قد يبدو لك هذا أمرا طبيعيا، لا يسـتحق الذكر حتى؛ أن نعيش في مدن يعزف فيها أشخاص من أعمار مختلفة الموسيقى في الشوارع وفي وسـائل النقل العامة، ويجمعون قليلا من المال من الناس الذين تجري ذكرياتهم مع الموسيقى أو مع أحزانهم.

في مدن كثيرة وقفتُ أمام أشخاص يعزفون بمهارة تدهش المارة، وبعضهم سَحرةٌ يرتدون هيئات آدمية. وكما تعلمين الموسيقى تحتاج أذناً صالحة وروحاً عاشت مع العصافير، أردت القول إنها لحسن الحظ لغة يفهمها الجميع.

نحن نسـتحق الرثاء، إيلينا؛ عشـنا معظم حياتنا في مدن تخلو من فنون الشـارع، في بلادٍ تطارد موسـيقى الشـوارع وتعتقلها. لو رقصـتِ في الشـارع؛ بابتسـامتك العذبة التي تشرب منها العصافير، كما تفعلين الآن لتم اعتقالك بتهمة خدش الحياء العام.

14 \ 06 \2023

رقصة فقدت ظلها

أريد أن أكتب أشـياء مفرحة، وبسـيطة، يمكن أن تسعد طفلة فقدت كلبها في الزلزال لو قرأتها.

لنذهب إلى الحديقة مثلا، نُجلسُ النهارَ بشمسهِ الساطعة على إحدى المراجيح وندفعه بحرص وقوة كأنه طفلنا المدلل، نلاعبه حتى يتعب.

لنسبح في بركة السباحة، نتخيل أنها نهر البليخ الذي أودعنا عنده طفولتنا ونسينا أن نعود لاسترجاعها. نخرج من الماء عراة نرتجف كأننا نرقص من لدغة الريح. عندما تقتل الريحُ الشمسَ، تقتل معها ظلالنا، نرقص دون ظل، على حفنة صغيرة من موسيقى بعيدة. يخيل لك أحيانا وأنت ترقصين من البرد أنك تسمعين موسيقى أو أصواتَ أجراسٍ على الأقل، ما نسمعه ليس موسيقى، إيلينا، إنها أصوات غجر يرحلون. وهم يرحلون دائما.. مثلي.

22\ 06 \ 2023

رقصة خائفة

بالأمس، رأيتُ قطرة ماء تسقط، فتذكرتك، إيلينا. في طريقها إلى العدم كانت تلتمع كبرق خائف أو خطوة متهورة. جسدها العاري كان مصقولاً، يتمايل في الهواء كأنه حسرة انطفأت لتوها. كانت كاليقين إذ يفلت من ذهن مؤمن شارف على العقل.

أستطيع أن أكتب لك كتابا عن قطرة الماء التي رأيتها تسقط منفردة أمس وذكرتني بك، فالزمن؛ مقياس المسافة، الذي رافق رحلتك بين سعف النخلة والتراب، أظنه كان سنة.

19\ 07 \ 2023

الرقصة الأخيرة

كما تعلمين مرّ الزمن سريعا، كأغنية نسمعها في الراديو ولا نستطيع استعادتها. في وداعك، ها هو الزمن يطلق إحدى وعشرين أغنية لترقصي عليها، إيلينا.

من هنا؛ في قلعة مطرح على خليج عُمان، وأحب أن أسميه بحر العرب؛ حيث تتوزع مدافع كثيرة لمقاومة الغزاة الذين يأتون من البحر؛
أنظر إلى البحر، وأرى الزمن الذي مرّ سريعاً بين البرتغاليين، الذين تركوا رقصاتهم على الساحل حينما غابت شمسهم، وبين رقصتك التي تشرق في المخيلة كأنها شمس ولدت من العدم لتعطي ظلالا لمن فقدوا رشدهم أو بلادهم.

أنظر إلى البحر الذي يبدو طفلا يقلد أمه وهي ترقص؛ البحر الذي نسيتُ لغته ولم تتقن يديّ تلويحة الوداع للبحارة المغادرين.

أنظر إلى البحر، بينما ترقصين الباتشاتا فوق الماء وحيدة وأتشاغل عنك بتقليب معنى الخطيئة أو العمر.

أفتح دفترك [مجازا] الذي تركتِه لي قبل أن ترفعي الأشرعة على سفينة الرحيل وأتعلم كيف أُشعل الفوانيسَ قبل أن تحل العتمة.

كان الشجر ينام قبل أن يتعلق برقصتك. كان الهواء يمر في الأماكن الخالية، قبل أن تصبحي رقصة بين السماء الدُنيا وخُطى الناس.

كان الزمن يركض قبل أن يتوقف مشدوها من مصير الروح وهي تلبس جسدَكِ وترقص في بحار غريبة. كانت الأعوام أرقاما قبل أن تفقد تواليها وأرقامها وتتحول إلى لحظة ذاهلة. كانت المدافع تطلق نيرانها باتجاه الغزاة قبل أن تراك ترقصين وتصبح آلة موسيقية. كان الزمن نهرا جارياِ قبل أن يبصر رقصتك ويفقد أنفاسه من الدهشة.

ها قد مر الزمن سريعا كفاصلة بين جملتين اسميتين؛ حضورك في المكان، وغيابك الأبدي.

سامحيني إيلينا، أريد أن استرسل. لا أريد خاتمة لوداعك بجملة شعرية تجلب الشهقات وأصوات الإعجاب من السامعين، أريد أن أبقى كي أودعك لزمن طويل؛

زمن يكفي ليجعل الطفولة تركض حافية في الشــوارع وهي تســتقبل عيد القيامة. زمن يكفي لأشــرب الماء من بحر العرب وأشعر أني ارتويتُ. زمن يكفي لأجمع أغاني الحرّانيين في بيت شــعري أترجمه للإســبانية ويصــبح لحنا ترقصــين عليه. زمن يكفي لأســرد رحلتي بين نهر البليخ وبحر العرب بينما ترقصين الباتشاتا .

يا إيلينا لو أســتطيع إعادة الزمن لبنيتُ لك تمثالا في معبد الإله ســين الذي مات في حرّان بينما كانت النســاء تغني له على ساحل بحر العرب. لو أستطيع إعادة الزمن لرسمتُك في قلب الشمس ترقصين الباتشاتا ليشهق المؤمنون: الله.. الله. لو أســتطيع لوضــعتك بدلا عن نجمة الصــبح آلهة للرقص.

لكنه الزمن الذي يجري إلى حيث يدري ولا ندري.

لو كنتُ ملكا لأمرتُ هذه المدافع المعروضة للسياح كأثر من زمن قديم أن تطلق في وداعك إحدى وعشــرين أغنية ترقصين عليها الباتشاتا بينما أنظر إليك تصيرين نقطة في بحر العرب وأنت تغادرين.

1 \ 08 \ 2023

خلف علي الخلف

شاعر من الجزيرة

شاعر وكاتب وباحث من الجزيرة «الفراتية»، مواليد الرقة قرية «خنيز محمد الخلف» 1969 يحمل الجنسية السويدية.

حاصل على ماجستير في فلسفة الصحافة من جامعة سودرتورن في ستوكهولم (السويد) عن رسالته المعنونة «احتمالات البلوكشين والاقتصادات المشفرة في تنمية الصحافة المستقلة والبناءة». كذلك يحمل شهادة في العلاقات الدولية من جامعة مالمو (السويد). شهادة في العلوم الإنسانية الرقمية من جامعة كالمر (السويد). إجازة في إعداد المحتوى من كلية مالمو للمهن التطبيقية (السويد). إجازة في الاقتصاد من جامعة حلب.

عمل في جريدة إيلاف الإلكترونية في الفترة من 2006 إلى 2013 كباحث ومحلل بيانات ومطور، ويكتب فيها مقالات رأي منذ العام 2003 حتى الآن.
أسس في عام 2005 موقع جدار الثقافي الذي تحول لجريدة إلكترونية لاحقاً، وتوقفت عام 2013.

كتب العديد من الأبحاث باللغة العربية والإنكليزية، ونشر منذ تسعينات القرن الفائت في الصحافة والدوريات العربية.

فاز بجائزة الفجيرة الدولية لنصوص المونودراما في دورتها الأولى عن عمله «گلگامش بحذاء رياضي».

ترجمت بعض أعماله ومقالاته إلى عديد من اللغات؛ الإنكليزية والألمانية والسويدية والإسبانية والفرنسية ولغات اخرى.

شارك في تأسيس العديد من التجمعات النقابية للكتاب والصحفيين وكذلك التيارات السياسة.

يجيد العربية والإنكليزية إضافة إلى تعلمه اليونانية والسويدية والإسبانية.

إصدارات

نون الرعاة (2004) شعر.
التنزيل (2007) شعر.
كحل الرغبة (2008) شعر.
نواح الغريب: حكاية لم ينقرها الطير (2008) نص.

قصائد بفردة حذاء واحدة (2009) شعر.
يوميات الحرب القائمة (2015) شعر.
يوميات الحرب القائمة (2016) شعر. ترجمة إنكليزية.
يوميات الحرب القائمة (2018) شعر. ترجمة ألمانية.
العبرة في الحواس (2018) شعر.
لنكتب عن السويد (2024) شعر.
ويُقال أعمى «الديوان الأندلسي وقصائد إيلينا» (2024) شعر.

گلگامش بحذاء رياضي (2010) مسرحية مونودراما.
حقيقتان وممثلة واحدة (2012) مسرحية مونودراما.
I Am From Islamic State (2018) مسرحية مونودراما.

عن البلاد التي بلا أمل (2011) مقالات سياسية.
أصوات بالأبيض والأسود (2012) حوارات.
نجلا بح والقرضاوي وجهان لعملة واحدة (2013) مقالات.
الدولة المرفوضة: سوريا ودور اليسار في إنتاج الدولة الطائفية (2023) دراسة سياسية.

الحرَّانيون السّومريون: في أصول ومعتقدات العشائر الزراعية في الجزيرة والفرات (2022) بحث أنثروبولوجيا مشترك مع قصي مسلط الهويدي.

إذا اردت الحصول على نسخة ورقية من هذا الكتاب إضغط: هنا





وحدي أمشي في الأندلس دون حياتي
التي بقيت على شاطئٍ بحر إيجة
وتركتني أعيش وحيداً
أُلقي اللوم عليها بينما أدندنُ اغنية إسبانية
لو عَبرتْ معي!
لأحبتْ هذي البلاد
ودونّا معاً ذكرياتنا مثل هؤلاء السياح.

KHALAF ALI ALKHALAF

CALLED BLIND

Andalusian Diwan and Elena's Poems

9 781326 903923

Jidar
Culture & Publishing

إذا اردت الحصول على نسخة ورقية من هذا الكتاب إضغط: هنا